والقديمة) هم مسلمون، وآمنوا بأنه «لا إله إلاّ الله ومحمد رسول الله»، ومع ذلك اختلفوا في المسائل الفقهية والشرعية الإسلامية، ودورها في حياة المسلم. وتحكم الشريعة الإسلامية كل نواحي حياة المسلم منذ ولادته إلى موته. وأنه لا تختلف معيشة طبقة الأئمّة عن حياة بقية أعضاء الجماعات الإسلامية. وواجه المسلمون صعوبات كثيرة خلال تعرُّفهم إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة في المدن الروسية الكبيرة، التي كان يسيطر عليها النظام الرأسمالي، وعلاقات الإنتاج. واطّلعوا على عادات وتقاليد شعوب مختلفة من معتنقي الأديان الأخرى وتقاليدهم، وتعلّموا اللغة الروسية والنواحي الجديدة للحياة الثقافية، بما فيها زيارة المسارح والحفلات، وقراءة الجرائد، والمجلات. وعندما يكون هناك مسلم مثقّف مقيم في مدينة ما، ويرجع إلى الريف يثير استياء الأئمّة وأغلبية أعضاء الجماعة، بسبب عاداته المغايرة للعادات التقليدية الإسلامية وتصرّفاته الغريبة بالنسبة إليهم. ومع كل ذلك ما زال حتى هذا المسلم المقيم في مدينة ما من روسيا يكون من المؤمنين؛ لأنّ الاختلاف بين هاتين الحركتين (الجديدة والقديمة) كان اختلافًا على مواقفهما من الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة في روسيا، ولكنهما لم يتحدّيا حياة المسلمين الذين عاشوا وفقاً للعقيدة الإسلامية.

وأثارت الحركة (الجديدة) إعجاباً واهتماماً كبيراً لدى أغلبية مؤلّفي الكتب في الإسلام المنشورة في الاتّحاد السوفييتي وروسيا الاتّحادية المعاصرة. وذلك بسبب واحد، وهو أن هذه الحركة أوقعت في قلوب المسلمين ضرورة تعايشهم مع القيم الغربية. ولننظر إذا كان هذا ضرورياً في ظروف روسيا القيصرية. واختلاف وضع مسلمي روسيا المركزية عن وضع مسلمي آسيا الوسطى، وشمال القوقاز، التي عاش المسلمون فيها في جمعيات كبيرة، منفصلين عن الروس.

وفي أواخر القرن التاسع عشر تعايش المسلمون من

عانى المسلمون في الدولة الروسية اضطهادات قاسية، حتى أصبحوا غرباء بالنسبة إلى السلطات الرسمية

مناطق (الفولغا) وما حول جبال الأورال الذين أُطلق عليهم اسمين (التتر، والباشكير)، مع الروس في المدن والريف. ولم تكن مسافة عشرات الكيلومترات فاصلة - بين مركز إداري روسي وقرية تترية - عقبةً لا تُقهر ولا تُتخطّى. من الطبيعي أن هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية في روسيا أدّت إلى تغيُّرات في حياة جمعيات إسلامية، وظهرت تيّارات إصلاحية. ومن الصعب الآن أن نقوم مساهمة الحركة (الجديدة) في حياة المسلمين في روسيا بسبب اختفائها ونتيجة ظهور دولة الاتّحاد السوفييتي.

المسلمون في دولة الاتّحاد السوفييتي

بعد الثورة الشيوعية في عام ١٩١٧م، وخلال الأحداث المصاحبة لها تغيّر وضع المسلمين في روسيا تغيُّراً جذرياً. وشهدت روسيا السوفييتية وخلفها الاتّحاد السوفييتي خلال السنوات العشر الأولى منذ إنشائهما أحداثاً عسكرية وسياسية سريعة، وتطوّراً وتغيُّرات اقتصادية جذرية. ولذا ما كان للسلطات السوفييتية أن تهتمّ بوضع المسلمين في الدولة. واتّصف عام ١٩٢٧م ببداية صراع حاسم وجازم للسلطات الرسمية ضدّ الدين؛ ونتيجةً لذلك تمّ إغلاق المدارس الإسلامية في كل مكان للدولة، أمّا المناهج الدراسية في المدارس الحكومية في هذه الفترة فكان أساسها الإلحاد، ونقص عدد الأئمّة، وتمّ تدمير المساجد، لكونها - كما أعلنت

طلاب الجامعة في أثناء المحاضرة

دورة تعليم اللغة العربية للسيدات

الحكومة - بقايا الماضي الدينية التي ليست لها علاقة بحاضر الدولة ومستقبلها. وذكر رضا الدين فخر الدين - رئيس الإدارة الدينية المركزية للمسلمين في مدينة (أوفا) - في تقريره عام ١٩٣٠م: «إن المؤسّسات الإسلامية كافة تعمل تحت خطر إزالتها والقضاء التام عليها. وقد تمّ إغلاق ٨٧ ٪ من المحتسبات (الإدارات الإسلامية للمحافظات بروسيا)، وأكثر من ١٠آلاف مسجد من ١٢ألف مسجد قائم في روسيا سابقاً، ومن عدد إجمالي للأئمّة والمؤذّنين لا يعمل نحو ٩٠ إلى ٩٧٪ الآن».

وربّما أول مرة في تاريخ المسلمين في روسيا أعلنت الدولة حرباً إيديولوجية ضدّ الإسلام من دون حلّ وسط، وغايتها هي استئصال الوعي الديني لدى المسلمين. وقامت الهيئات الحكومية في الاتّحاد السوفييتي بهذه المهمّة، وهي تراقب كل أنشطة المساجد والمؤسسات الإسلامية رقابةً صارمةً وتامّةً، وتطلب تقديم تقارير شاملة عن اجتماعات الجمعيات الإسلامية وتطّلع على قرارات تعيين الأئمّة وحتى فحوى الخطب المنبرية. ولاحقاً أدّى الوكلاء المختصّون بالشؤون الدينية في حكومة الاتّحاد السوفييتي مثل هذه المهمّات. ولذا ففي فترة ما بعد قيام الاتّحاد السوفييتي لم يبق في الدولة إلاّ عدد قليل من بين المتقدّمين في السنّ ممن كانوا يؤدّون الفرائض بصورة علنية.

أمّا الأطفال والشباب من أسر المسلمين، خصوصاً من ولد في العشرينيات منهم فتربّوا على أفكار الإلحاد الحاكم في المدارس الحكومية، وفي منظّمة الطلائع (بيونير)، واتّحاد الشبيبة الشيوعية (الكومسومول) التي كانت العضوية فيهما إجبارية، وإلزامية للجميع. وإلى جانب ذلك أدّت سياسة اضطهادات الأئمّة وقتلهم في الثلاثينيات، وكذلك تدمير المساجد، إلى تغيُّر الوعي الاجتماعي. على سبيل المثال نتيجةً لسياسة نزع ملكيات خاصّة في الريف فقد جدّي عبدالوليّ مورتازين الإمام في قرية (شيشقابي)

في فترة ما من تاريخ الاتّحاد السوفييتي لم يبق فيه إلاّ عدد قليل ممن كانوا يؤدّون الفرائض بصورة علنية

في منطقة بوينسك - منطقة جمهورية تترستان منزله، وإقطاعه، وأصبح منبوذاً في المجتمع، وعاش أيّامه الأخيرة في مخبأ محفور في الأرض، وربّما لحسن الحظّ توفّي وفاة طبيعية قبل عام ١٩٣٧م، حينما أُعدِم أخوه إبراهيم حسب قرار حكومي يهدف إلى القضاء على الأئمّة. ومع ذلك لم يزل يعمل عدد قليل من الأئمّة الشجعان، الذين بقوا على قيد الحياة خلال سنوات الاضطهادات، والذين ظلمتهم السلطات الرسمية لكونهم بقايا الماضي الدينية.

فبقية المؤمنين الذين حافظوا على الإيمان بالله تعالى وأدّوا العبادات، اتخذ منهم المجتمع السوفييتي موقفاً مختلفاً عما سبق، وعدّ هؤلاء مرتدّين. وفي الأغلب سبّب ارتياد المساجد استنكار الشخص وشجبه من المجتمع، كما طرد المسلمين من المدارس الحكومية، ومنع الموظّف من الحصول على منصب إداري متقدّم. والحقّ أن المسلمين القليلي العدد الذين زاروا المساجد جهراً في تلك الفترة كانوا من المتقدّمين في السنّ والمتقاعدين والفلاّحين والعمال، وكان من النادر جدّاً أن يجيء إليها الدارسون من الشباب وخرّيجو المعاهد والجامعات. ومع ذلك لجأ المؤمنون إلى المداورات، واجتمعوا في منازلهم لصلاة الجمعة، وتلوا القرآن الكريم خلال الجنازات وفي المجالس، وصاموا شهر رمضان المبارك. ومع العدد القليل جدّاً فمن أدّوا العبادات الإسلامية كلها في دولة الاتّحاد السوفييتي بقي الإسلام لأغلبية المسلمين في روسيا بناءً روحياً وثقافياً، وأصالةً تاريخيةً لهم، وهكذا حافظوا على عادات أسلافهم المحترمين وتقاليدهم.

والمهمّ أن حكومة الاتّحاد السوفييتي لم تنجح في استئصال الوعي الإسلامي لدى المسلمين في الدولة خلال هذه السنوات الرهيبة والفظيعة. ولعلّها أدركت محاولاتها الباطلة والفاشلة لخلع الإيمان بالله من قلوب الناس، الذي يساعدهم في حياتهم في ساعات المعاناة والمصائب. وأعلنت الحكومة خلال الحرب الوطنية العظمى من عام ١٩٤١م إلى

لسوء الحظّ لا توجد في روسيا الآن أنشطة منظّمة في مجال الدعوة الإسلامية إلاّ قليلة جدّاً

١٩٤٥م التخفيف من سياسة الاضطهادات والتحريمات. وبعد هذه الحرب تحسّن وضع المسلمين في الدولة، مع أن المؤمن الذي كان يجهر بإيمانه بالله تعالى لم يتمكّن من الالتحاق بالمعاهد، أو الجامعات، والحصول على منصب موقر. وفي الوقت نفسه ما زالت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تناقش قضايا تشديد الصراع ضدّ الديانات التي تعدها من بقايا الماضي، واتخذت قرارات وتوجيهات في هذا الشأن.

والمؤمن الذي اتخذ - في ذلك الحين - طريق الخدمة في المساجد قد أنجز مأثرة؛ لأن الأجهزة الإيديولوجية المختلفة كانت تضغط عليه، وترفع شعارات معادية للدين، وتخوّفه بوضع العراقيل في حياته وحياة أولاده. ومع ذلك كله بقي في روسيا في كل زمان أناس أخذوا طريقاً شائكاً في سبيل الله؛ لأنهم كانوا على وعي بالحاجة إليهم من قبل المسلمين، الذين ما زالوا يرتادون المساجد لأداء فريضة الصلاة، والإصغاء للخطب المنبرية، والدعاء لله تعالى، والتذكير بوالديهم وأجدادهم، وتقديم الأضحية، والاستغفار من الذنوب التي تؤذي أنفسهم وأرواحهم. وفي الأغلب زار المساجد المتقدّمون في السنّ، وعدد قليل من الشباب المؤمنين، ولم يكثر عدد زائري المساجد إلاّ في الأعياد، والمهمّ أن الأئمّة حافظوا على القيم الإسلامية، وعادات أسلافهم وتقاليدهم، وقاموا بالعبادات في هذه الظروف

القاسية. وبإمكاننا أن نقول: «الحمد لله - عزّ وجلّ؛ لأنهم أجدادنا وآباؤنا الذين حفظوا ديننا حفظاً بعناد وصلابة طوال سنوات الاضطهادات والفاقات، وآمنوا كما كان يؤمن أسلافنا خلال ١١ قرناً سابقاً». ونشكر هؤلاء الأسلاف على أن الأمّة الإسلامية في روسيا تتمسّك بالأصالة الروحية التي لم تقسم وتشتت إلى حدّ الآن إلى فرق متناحرة.

المسلمون في روسيا الحالية

شهدت روسيا في منتصف الثمانينيات الميلادية بداية تغيّرات جذرية لعلاقات الدولة مع الديانات. وأدّت سياسة إعادة البناء «التريسترويكا» والقضاء على الحكم الشيوعي في الدولة إلى حرّية الديانات والعبادات، وعدم التجسّس على العقائد. وبدأ المسلمون يزورون المساجد بلا خوف ورعب، وأظهر كثيرون منهم إيمانهم بالله تعالى، ولم يعد ذلك يُثير استنكاراً أو شجباً اجتماعياً. وتمكّن المعلّمون - الذين كانوا يعلمون العقيدة الإسلامية، والقرآن الكريم للأطفال والكبار، ولكن خفيةً قبل ذلك - من القيام بأنشطتهم جهراً، وازداد عدد الدارسين عندهم نتيجةً لاهتمام متزايد بالإسلام في المجتمع.

وأخذ المسلمون - باختلاف أعمارهم، ومستويات تعليمهم بمن فيهم العلماء ورجال الأعمال - يزورون المساجد. وظهر أن الدين الإسلامي - مع عده في دولة الاتّحاد السوفييتي بقية من الماضي - وسيلة وحيدة يساعدهم - الآن - على البحث عن الأجوبة لتساؤلات روحية لا مفرّ منها. وقد كانت الأفكار الشيوعية، التي استوعبت القيم الأخلاقية والروحية البشرية عامة، عبارة عن الدين الكاذب الذي يقدّم الطعام الروحي المزوّر. أما الدين الحقيقي - كما هو معلوم - هو أساس القيم الأخلاقية والمعنوية. ونتيجةً لانفراط الاتّحاد السوفييتي فقد أهلها قيمهم الروحية وأهدافهم في حياتهم، ولذا أصبح الإيمان وسيلة وحيدة للبحث عن هذه القيم الخالدة الذاتية.

وأحياناً يقول بعض الناس: إن الإيمان هو ليس أكثر من موضة في روسيا، وإن الدينّيين يقلدون رؤساءهم فقط. وذلك ليس صحيحاً بسبب أن أغلبية المؤمنين يأتون إلى المساجد إجابةً لدعوة قلوبهم ونفوسهم. وهم يتلمسون سماع كلمة طيبة ولطيفة، وتلقي إجابات عن أسئلتهم غير السهلة أحياناً. ووقعت على الأئمّة مهمة الإجابة عن هذه الأسئلة وهم مسؤولون عن تنبيه هؤلاء الناس إلى الإيمان الحقيقي والقيم الإسلامية، ويجب عليهم أن يجعلوا المساجد مراكز للدعوة الدينية والتربية الإسلامية؛ لكي لا تبقى المساجد في روسيا خزانات لجمع الصدقات والتبرّعات.

وفي هذه الظروف تحتلّ قضية إعداد الأئمّة والدعاة مرتبة أولى، حتى تكون لديهم معلومات واسعة، ومهارات عالية. وأدى التخطيط الناجح لإعادة بناء المساجد، وإنشاء مراكز دينية في الدولة إلى وجود أكثر من ٦ آلاف مسجد ومركز ديني في روسيا الحالية. ومع ذلك يخلو عدد كبير من المساجد في مناطق الدولة من الأئمّة، وبذلك لا يتمكّن المسلمون فيها من الاستماع إلى الخطب الدينية، وحتى

السيد يوري لوجكوف - عمدة موسكو - في أثناء زيارته لافتتاح جامع موسكو - يصافح الشيخ راوي عين الدين - المفتي العام لروسيا - ويتوسطهما د. مراد مرتازين - نائب المفتي و مدير الجامعة الإسلامية

حلقات دروس القرآن الكريم أيام الأحد

لا يقوم المؤمنون غير المؤهّلين بهذه المهمّات في أغلبية المساجد في الدولة، كان من الضروري جدًا إنشاء شبكة من المدارس والكلّيات الإسلامية العليا في مختلف أماكن روسيا الاتّحادية. ويأخذ تعليم الأئمّة وتأهيلهم داخل دولتنا - وليس في الخارج - أهميةً بالغة لكي يعيشوا الجوّ نفسه الذي تعيشه أجيالهم القادمة، وتكون لهم الصورة الشاملة عن المواطنين المؤمنين، وعن الأحداث التي تجري في البلاد وابتهاجات روسيا الحالية ومصائبها. وتعمل في روسيا الآن والحمد لله معاهد إسلامية وجامعات ومدارس ثانوية إسلامية وكليات تقوم بإعداد الأئمّة.

القضاء على الحكم الشيوعي في الدولة أدى إلى حرّية الديانات والعبادات، وعدم التجسّس على العقائد

وفي أواخر الثمانينيات تمّ افتتاح المدارس الإسلامية إلى جانب المساجد في روسيا، إذ يطّلع الحاضرون على مبادئ الإسلام وفرائضه. وعلى سبيل المثال: تعمل المدرسة الإسلامية داخل المسجد الجامع في موسكو منذ عام ١٩٨٩م، وإلى جانب ذلك تتوافّر المدارس الإسلامية في مناطق أخرى، خصوصًا في شمال القوقاز، وتترستان، وباشقرتستان وغيرها.

وإليكم مثالاً الجامعة الاسلامية بموسكو التي أتشرف برئاساتها منذ تأسيسها في عام ١٩٩٤م منذ أن كانت كلية إسلامية، ثم جامعة إسلامية شاملة، إذ تعمل كلية الإلاهيات، وكلية اللغات، والدورات الإسلامية النسائية العليا، وكلية الدراسة بالمراسلة، في الأوقات المسائية، ومدرسة أيام الأحد، وكلية الدورات التعليمية الإسلامية العليا للمتخرجين في المعاهد والجامعات العلمانية المختلفة. ومدرسو الجامعة هم من الأئمة وعلماء الدين الإسلامي، إلى جانب أساتذة ومعلمين من مختلف الجامعات والمعاهد بموسكو، وكذلك من تركيا، ومصر، وبعض الدول العربية والإسلامية الأخرى. كما إن للجامعة الإسلامية بموسكو علاقات واسعة النطاق مع عدد من المنظمات الدولية والإسلامية، منها: البنك الإسلامي للتنمية (المملكة العربية السعودية)، والمنظمة الخيرية العالمية لجنة مسلمي آسيا (الكويت)، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية (ليبيا)، ووزارة شؤون الأديان في جمهورية تركيا، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، وغيرها. ويشغل خريجو الجامعة مناصب محترمة، منها أئمة في مختلف مدن روسيا الاتحادية.

ومن الواضح أن قضية الدعوة الإسلامية في يومنا هذا تُعد مهمةً بالغة. ويؤدّي الإيمان بالله - عزّ وجلّ - حتمًا إلى انتشار الإسلام في روسيا، أو في حال إنكاره إلى رجوع الإلحاد بعد سنوات قليلة من الحماس الديني، والاهتمام

بالإسلام. والحقيقة أن كثيراً من زائري المساجد يرون الإسلام شيئاً جديدًا لهم، اكتشفوه عن طريق الكتب، أو الأفلام التاريخية، ومن بينهم من يهتمّ بدين أسلافه الذين أقاموا الصلاة في المساجد، وصاموا، وتلوا القرآن الكريم. والمهمّ أن تظهر لدى هؤلاء الرغبة في العودة إلى المساجد التي قد زاروها مرّةً، وأن يروا ويسمعوا فيها ما تحتاج إليه قلوبهم وأنفسهم. ولسوء الحظّ لا توجد في روسيا الآن أنشطة منظّمة في مجال الدعوة الإسلامية إلاّ قليلة جدّاً، ولا تقدّم وسائل الإعلام إلى الأئمّة فرص الخَطابة عن طريق الإذاعة، والتلفاز، والصحف، والمجلاّت.

ومما لا ريب فيه أن زيارة المساجد والمدارس والجامعات الإسلامية هي طريقة أساسية للقيم الروحية الخالدة في يومنا هذا. وتقوم المساجد في روسيا بالتوعية الإسلامية، وتربية المسلمين على ضوء العقيدة الإسلامية. فيقبل عليها من لديه أسئلة عن الإسلام والحياة عموماً، أو عند الضرورة لإقامة الشعائر الدينية يجيء المسلم إلى المسجد. ويأتي إلى الإمام، أو الملاّ في حالات ولادة الطفل، وإطلاق الاسم عليه وكذلك النكاح، ووفاة الأقارب، والجنازة، وحين يبحث عن طرائق الشفاء من الأمراض، والتخلُّص من الصعوبات والمصائب التي يعاني منها. ويقبل المسجد كل إنسان مهما كانت قوميته أو جنسيته، ومهما كان فقيرًا أو غنيّا، شابّا أو مسنًا، ولا تستطيع المؤسسات الإسلامية الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها أن تقوم بدور المساجد في حياة المسلمين. ولاتزال الأحزاب والاتّحادات والمراكز الإسلامية تجمع أعدادًا قليلة من المسلمين، وتضطلع بمهمات ليست لها علاقة بالإسلام والدعوة الإسلامية.

الدعوة الإسلامية وتربية الجيل الناشئ من المسلمين

والمهمّ الآن أن نفهم ماذا نقصد بالكلمات (المسلمون في روسيا)، وانطلاقًا من كل ذلك أن نعيّن غاية الدعوة الإسلامية في دولتنا.

ونستنتج من المقارنة بين وضع المسلمين في بداية القرن العشرين ووضعهم في أواخره أنهما يختلفان تماماً. وكما جاء - سابقًا - عاشت أغلبية المسلمين في روسيا القيصرية قبل ثورة عام ١٩١٧م في جماعات موحّدة قومياً ودينيًا، مع اختلافاتهم في مسائل الحفاظ على العادات والتقاليد، وقواعد السلوك الاجتماعية، ومسائل تطوير العلوم، ونظام التعليم والتثقيف. وسيطر الإسلام على كل النواحي في حياة المسلمين منذ ولادتهم في الأسرة، والمدارس الإسلامية، والمساجد، إذ اطّلعوا على المبادئ الأخلاقية، وقواعد السلوك الخاصة حسب العقيدة الإسلامية.

ويظهر أن أغلبية المسلمين أصلاً - المقيمين في روسيا في أواخر القرن العشرين - ليست لهم دراية بالعقيدة

د. مراد مورتازين - نائب المفتي ومدير الجامعة الإسلامية

الإسلامية، والعبادات الإسلامية، وإذ يعترف كثيرون منهم بأنهم ملاحدة؛ بسبب ولادتهم وتربيتهم في روسيا الشيوعية التي حكم فيها مبدأ الإلحاد. وتقول استطلاعات آراء المسلمين التى أجريت بين تلامذة المدارس الابتدائية والثانوية الحكومية في المدن المختلفة من روسيا وأعمارهم من ١١ إلى ١٧ سنة إن نحو ٣٠ إلى ٥٠ ٪ منهم يعدون أنفسهم ملاحدةً، وأمّا الشباب المسلمون الآخرون فليست لكثيرين منهم دراية بالإسلام.

وفي الظروف الراهنة لروسيا لا يمكن للإسلام أن يصبح غاية النظام التعليمي في مدارس التعليم العامّ، أو المهني. وتفصل القوانين الروسية الديانات عن المدارس الحكومية والدولة. وأمّا أغلبية مدرِّسي المدارس ووالدي الدارسين فلا يعتنقون أي عقيدة دينية. وتثير الاقتراحات بإدراج الموادّ الدينية في المناهج الدراسية للمدارس الحكومية مجادلات عنيفة.

ونظريّاً تشمل تربية الأطفال - حسب العقيدة الإسلامية - المراحل الآتية: أوّلاً: يطّلع الطفل على العقيدة الإسلامية في الأسرة من أبيه وأمّه، وجدّه وجدّته، ثم يبدأ بزيارة المسجد لأداء صلاة الجمعة، وفي الأعياد، وكذلك المدرسة الإسلامية في أيّام السبت والأحد، ويدرس العقيدة والفرائض الإسلامية، إمّا من دون مساعدة المدرّسين، وإمّا في المدارس التعليمية، ويقوم بالفرائض الإسلامية، وبعد ذلك يبدأ بالتوعية الإسلامية. وتبدأ تربية الأطفال في الأسرة. والمهمّ أن تكون لوالديهم دراية عن الإسلام؛ لكي نأمل أن ينشأ في المستقبل القريب - بمشيئة الله تعالى - جيل جديد من المسلمين، الذين ليسوا مسلمين أصلاً فقط، بل وحقّا أيضاً.

ويمكن الإشارة إلى الاتّجاهين في الدعوة الإسلامية التي يقوم بها الأئمّة في روسيا:

- القيام بالدعوة الإسلامية بين مرتادي المساجد. ولكن عددهم قليل بالمقارنة مع ٢٠ مليون مسلم أصلي مقيم في روسيا. ويدلّ ذلك على عدم الرغبة عند عدد كبير من المسلمين في إقامة الصلاة والفرائض الإسلامية، مع إيمانهم بالله تعالى والعقيدة الإسلامية. والحمد لله - عزّ وجلّ - يزداد عدد مرتادي المساجد والمصلّين في أيّام الجمعة ودارسي العقيدة الإسلامية. ومن الواضح أن عدد المؤمنين الآن أكبر بكثير ممّا كان في الثمانينيات في أثناء الحكم الشيوعي، ولكنه أقلّ بكثير من عددهم في بداية القرن العشرين.

بقي الإسلام لأغلبية المسلمين في روسيا بناءً روحياً وثقافياً، وأصالة تاريخية لهم

- لا يزال هناك عدد كبير من المسلمين أصلاً الذين يعيشون في الحدّ بين الكفر والإيمان لأسباب مختلفة. والمهمّ على كل مسلم في روسيا أن يعتقد بجنانه وقلبه، وأن يقرّر بلسانه أنه «لا إله إلاّ الله ومحمد رسول الله»، ومن الضروري للأئمّة أن يساعدوه في ذلك حتى ينجحوا في هذه المهمّة الصالحة. وليس ذلك إلا بداية الطريق فقط إلى «عودة الروح» الإسلامية. وإذا آمن المسلمون بأنهم خلق الله تعالى فسيزورون المساجد، ويقيمون الصلاة، ويصومون شهر رمضان المبارك، ويدفعون الزكاة.

تأثير الدعوة الإسلامية التي تقوم بها مؤسّسات وحركات إسلامية أجنبية في مسلمي روسيا

خلال السنوات الأخيرة انتشرت في روسيا كتب

طلاب في أثناء المحاضرة

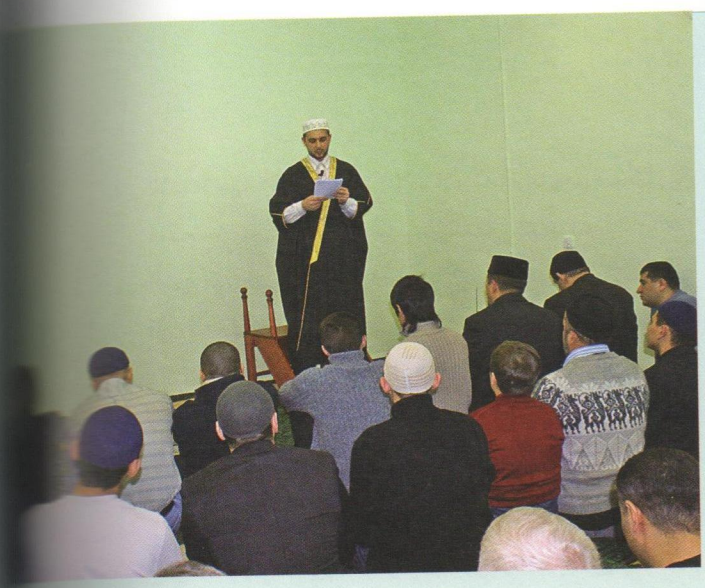

طلاب الجامعة الإسلامية في أثناء الخطبة

عن الإسلام، مترجَمة من اللغات الأجنبية. أمّا مؤلّفو هذه الكتب المتعدّدة فيعيشون خارج روسيا، وليست لهم فكرة عن المجتمع الروسي الذي يشمل قوميات مختلفة، وديانات متعددة. ويحاول هؤلاء أن ينقلوا تقاليد المسلمين الساكنين في البلاد العربية والشرق الأوسط وعاداتهم إلى مناطق روسيا من دون الأخذ في الحسبان تلك الخصائص التي تتميز بها روسيا. والقارئ الروسي المعاصر، سواء أكان مسلمًا أم غير مسلم، عندما يبدأ بقراءة كتب من هذا النوع يتأكد من أن الإسلام يدعو إلى مقاومة السلطات الرسمية وإلى الجهاد ضد من يسمونهم بالكافرين، وعدم احترام الديانات الأخرى.

وهكذا تكون للقارئ الروسي صورة كاذبة عن الإسلام، وكأنه دين يدعو إلى التطرّف والتعصُّب الديني. كما نرى أن الحديث في مثل هذه الكتب لا يدور عن القيم الإسلامية الحقيقية، بل يدور عن أفكار حركات سياسية معينة، وعاملة في مختلف دول العالم الإسلامي. وفي الوقت نفسه تستهدف تحريض القارئ على المؤسّسات الإسلامية المتطرِّفة الأخرى المقاوِمة لها. وتثير المعارضات لمثل هذه المؤسّسات والحركات الإسلامية، ودعاية المقاومة للسلطات الرسمية، وانتقادات الأئمّة مشكلات كبيرة في روسيا وردّ فعل عند المسلمين المقيمين فيها.

ونتيجةً للإصلاحات من بداية عام ١٩٩١م، التي منحت الأجانب إمكانية الدخول غير المقيّد إلى روسيا، جاء كثير من الأئمّة إلى دولتنا للقيام بالدعوة الإسلامية. وهم في الحقيقة يحاولون أن يؤثّروا في حياة المسلمين أيديولوجياً وسياسياً، وقبل كل شيء دعوا إلى الجهاد ضدّ الكافرين.

ومن المعلوم أن مثل هذه الدعاية في أوساط الشباب المسلمين قادتهم إلى أحداث السنوات الأخيرة التي شهدتها جمهوريات طاجيكستان، وشيشان، وداغستان. وقتل مفتيا جمهوريتي طاجيكستان، وداغستان، وتمّت عدّة محاولات لاغتيال المفتي في جمهورية شيشان. والمهمّ الآن ألّا ندع مثل هذه الدعايات والكتب التي لا تهتمّ بالتوعية الإسلامية تؤثّر في حياة المسلمين في روسيا الذين لا يزالون يبقون مجموعةً موحّدة دينياً وإيديولوجياً.

إنني لا أتهم كل المؤسسات الإسلامية بمثل هذه الأنشطة الفاضحة والشائنة. بينما يعمل في روسيا الآن عدد كبير من المؤسّسات السياسية والمنظّمات الثقافية والتعليمية الخيرية، التي تساعد المسلمين، وتساندهم في حياتهم

اليومية، وتشمل أنشطتها الصالحة مساندة المسلمين في روسيا، ورعاية المدارس والجامعات الإسلامية، والمساهمة في إعادة بناء المساجد، وهذا يزيدنا أملاً بأن التعاون بين المؤسّسات الإسلامية الأجنبية والمسلمين في روسيا سيكون مرحّباً به ومقبولاً إن شاء الله.

مستقبل المسلمين في روسيا

يا ترى، ما هي حياة المسلمين في روسيا في المستقبل؟ المهمّ أن كل مسلم في دولتنا الآن له تعليم علماني جيّد؛ لأنّ التعليم الثانوي في روسيا إجباري وإلزامي للجميع فكثيرون من مرتادي المساجد تخرّجوا في المعاهد والجامعات. وأثّرت القيم الأوربية والثقافة والفنون الغربية في نشأة المسلمين في دولتنا وتربيتهم وهم يقرؤون مؤلّفات بوشكين(١)، وليرمونتوف(٢)، وتولستوي(٣) بتلذّذ وتمتُّع، ويشاهدون الأفلام الحديثة، ويزورون المسارح، ولهم دراية بالفنون والثقافة. ولذا لا يستطيعون ان يكتفوا بالقيم وقواعد السلوك الشرقية التقليدية في حياتهم اليومية. ويتميّز المسلمون في روسيا الآن بمستوى عال من الثقافة والتعليم، وها هي ذى أحلام مؤسس حركة (الجديدة) إسماعيل غاسبرينسكي تحقق ومن هنا لن يلبس المؤمنون في دولتنا عمائم أو جلابيب في حياتهم اليومية، ومن الواضح أنه ليس ملزماً لهم؛ لأن الله تعالى لا يطلب ذلك من عباده. والأهمّ من ذلك التصديق بالقلوب والأفتدة وعمل الصالحات التي يسعى إليها المتّقون بإهمال الثروات وقيم الحياة الدنيا.

ويبحث مسلمو روسيا في الإسلام عن الأجوبة للتساؤلات الفلسفية اليومية، التي لا شكّ تظهر في حياتهم في أثناء العمل، والاتصالات بمعتنقي الأديان الأخرى، والأقوام المختلفة، وخلال قراءة الكتب، ومشاهدة الأفلام. والإيمان بالله تعالى وحده بإمكانه أن يحيطهم بالقيم الروحية والأخلاقية، وحمايتهم من الدعاية إلى الفجور والعنف التي تقوم بها الصحف، والمجلات، والتلفاز، والإذاعة المعاصرة، والأفلام الغربية، ومن كذب بعض السياسيين والشخصيات الاجتماعية في روسيا وفسادهم. والمهمّ على المساجد أن ترشد المسلمين إلى سبيل التخلُّص الحقيقي الدقيق من المعاناة والارتيابات الروحية، والارتداد الديني.

بعد الثورة الشيوعية في عام ١٩١٧م، تغيّر وضع المسلمين في روسيا تغيُّراً جذرياً

وأنا على يقين من أن العالم الغربي بينّينغسين كان على الحقّ عندما قال: «إن المسلمين في بداية القرن العشرين في روسيا قدروا على ممارسة دور طليعي في إحياء العلوم الإسلامية. ونأمل أن للمسلمين في روسيا إمكانات علمية وفكرية حتى وقتنا هذا، وهي ستمنح لهم ممارسة هذا الدور في العالم كلّه».

وندعو الله تعالى أن يهب لنا من رحمته وبركته، وأن يهيئ لنا عملاً صالحاً إنه سميع الدعاء.

المراجع

١- بوشكين، ألكسندر (١٧٩٩ - ١٨٣٧م): شاعر وروائي وكاتب مسرحي روسي، يعد أبا الأدب الروسي الحديث.

٢- ليرمونتوف، ميخائيل (١٨١٤ - ١٨٤١م): شاعر وروائي روسي، أحد ألمع الشعراء الرومانتيكيين الروس.

٣- تولستوي، ليو (١٨٢٨- ١٩١٠م): روائي روسي، أشهر آثاره: «الحرب والسلم» War and Peace (١٨٦٥ - ١٨٦٩م).